تمني الرجوع إلى الحياة الدنيا في القرآن الكريم، دراسة موضوعية

دكتور/ فهد بن حمد بن داهس البيضاني الحربي
أستاذ التفسير وعلوم القرآن المساعد، بقسم التعليم الأساسي
كلية العلوم والآداب بعقلة الصقور – جامعة القصيم
المملكة العربية السعودية

الملخص:

هذا بحث في موضوع "**تمني الرجوع إلى الحياة الدنيا في القرآن الكريم، دراسة موضوعية**"، تناول فيه الباحث ثلاث عشرة آية من آيات القرآن الكريم، جاء فيها "تمني الرجوع إلى الحياة الدنيا"، وذلك أن هذا الموضوع لم يبحث استقلالا، وهو موضوع يحتاجه الناس، إذ إنه يتعلق بالمصير، وبالحياة الآخرة الأبدية.

وقد درس الباحث هذا الموضوع دراسة إجمالية ثم استنباطية، تناول فيها تفسير الآيات الواردة في الموضوع، وما يرتبط معها في السياق من آيات، ووجد أن تمني الرجوع إلى الحياة الدنيا وقع في أربعة مواطن من مواطن الآخرة، ثم حاول استخراج ما في الآيات من دلالات وهدايات واستنباطات، فخرج بخمس حقائق كان انكشافها هو سبب تمني الرجوع، وبستة أهداف زعم أصحاب تلك الأماني أنها مرادهم من الرجوع، وبسبعة ردود كانت هي الإجابة على أمانيهم، وبأربع فوائد تربوية، كما خرج بالإجابة عن سؤال: ماذا لو استُجيب لأصحاب تلك الأماني، وأُعيدوا إلى الحياة الدنيا؟ وأوصى ختاما بدراسة بقية الأماني، التي تَعدِّد صدورها في الدار الآخرة.

الكلمات المفتاحية: تمني – الرجوع – الكرّة – الدنيا – الموت – القيامة.

Abstract:

The present research tackles the topic "The resurrect wish in the Holy Quran: an objective study". The present researcher studied thirteen Holy Quran verses that mentioned the wish to resurrect. The topic of this research hasn't been studied independently even though it is essential for people because it is related to life and the hereafter; the real destination. The researcher studied the topic comprehensively and deductively. The researcher presented the interpretation of the related Holy Quran verses, then a contextual interpretation. The researcher found that the wish to resurrect is mentioned in four cases of the hereafter. Studying the indications of these verses the researcher reached five facts that are the essence of the resurrect. Furthermore, the researcher reached six proposed goals for those who have such wish, Seven replies for the return wish and five educational values. The researcher reached the answer to the question: What if granted to such wish and wishers resurrect again? The present study recommends studying the other different wishes mentioned in the hereafter.

Key words: wish – resurrect – hatred – life – death – resurrection.

المقدمة:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله. أما بعد:

فإن القرآن الكريم قد جاء بالمواعظ الكثيرة النافعة لمن تدبرها، ومن تلك المواعظ ما يتعلق باليوم الآخر، وكان مما لفت نظري وأشغل فكري مما يحدث في اليوم الآخر: ما يكون فيها من أماني تصدر من أهل الضلال والتكذيب، يطلقونها بندم وحسرة ولهفة، فلا يجدون لأمانيهم تحقيقا، ولا لتوجعهم مواسيا، ومن تلك الأماني "تمني الرجوع إلى الحياة الدنيا"، فأحببت أن يكون بحثي في هذا الموضوع، لحاجة الجميع إلى أخذ العظة والعبرة منه، ولأن في هذا الموضوع دلالات وهدايات كثيرة تحتاج إلى إظهار ونشر، وعسى أن أسهم ولو بشيء قليل في مجال الدراسات القرآنية، فكان هذا البحث بعنوان "**تمني الرجوع إلى الحياة الدنيا في القرآن الكريم، دراسة موضوعية**"، نسأل الله الكريم أن يسلك بنا جميعا سبيل الصالحين الفائزين، ويعيذنا من أحوال المكذبين الخاسرين.

أهمية الموضوع:

تأتي أهمية الموضوع من كونه يبحث في آيات جليلة من كتاب الله عز وجل، ويعالج موضوعا مهما يحتاجه كل إنسان، خاصة أنه لم يُخصَّ من قبل بدراسة مستقلة، علاوة على أنه موضوع فيه من الهدايات والدلالات ما يحتاج إلى مزيد بحث وعناية.

أسباب اختياره:

١- رغبتي بالمساهمة في مجال الدراسات القرآنية المتعلقة بأشرف كتاب.

٢- ميلي للكتابة في أمثال هذا الموضوع الإيماني المؤثر في القلوب.

٣- عدم وجود دراسة مستقلة لهذا الموضوع، حسب اطلاعي.

أهداف البحث:

١- دراسة الآيات الواردة في تمني الرجوع إلى الحياة الدنيا.

٢- استخراج ما في تلك الآيات من هدايات ودلالات.

حدود البحث:

يقتصر البحث على الآيات التي جاء فيها تمني الرجوع إلى الحياة الدنيا، وقد اتضح لي بعد الاستقراء والتتبع أنها ثلاث عشرة آية كريمة، منها ثمان آيات بألفاظ صريحة؛ وهي "الرجوع" ومرادفَيه "الكَرّ" و"الرَّد"، وخمس آيات بلفظين غير صريحين، وهما "الخروج" و"التأخير"؛ الدالان بسياقهما على معنى الرجوع.

منهج البحث: أجريت البحث على ثلاث خطوات:

١- تتبَّعت آيات القرآن الكريم واستخرجت منها الآيات المتعلقة بالموضوع.

٢- فسَّرت الآيات تفسيرا إجماليا، مركزا فيها على ما يتعلق بموضوع البحث.

٣- سلكت المنهج الاستنباطي في استخراج الدلالات والهدايات من الآيات الكريمة.

الدراسات السابقة:

لم أطلع على من درس هذا الموضوع دراسة مستقلة، لكني وقفت على بحث تناول موضوع أماني أهل النار جملة، وهو بحث بعنوان "**أماني أهل النار، دراسة قرآنية**"، للباحثين: محسن سميح الخالدي، وزهران عمر زهران، من جامعة النجاح الوطنية بفلسطين، وهو بحث مختصر، يقع في ١٨ صفحة، واقتضت حدود البحث أن يقتصر على ذكر ثمان آيات فقط مما ورد في بحثي، وكان ذكرها للاستشهاد دون تفسير.

خطة البحث:

انتظم هذا البحث في **مقدمة،وتمهيد،ومبحثين،وخاتمة، وقائمة مراجع.**على النحو التالي:

المقدمة: وفيها: أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، وأهدافه، وحدوده، ومنهجه، والدراسات السابقة، والخطة.

التمهيد: وفيه: التعريف بالمفردات.

المبحث الأول: تمني الرجوع إلى الحياة الدنيا، ومواطنه. وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: تمني الرجوع إلى الحياة الدنيا عند الموت.

المطلب الثاني: تمني الرجوع إلى الحياة الدنيا عند العرض على الله تعالى.

المطلب الثالث: تمني الرجوع إلى الحياة الدنيا عند رؤية النار والعذاب.

المطلب الرابع: تمني الرجوع إلى الحياة الدنيا عند العذاب في النار.

المبحث الثاني: هدايات من آيات تمني الرجوع إلى الحياة الدنيا. وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: الحقائق التي أدت إلى تمني الرجوع إلى الحياة الدنيا.

المطلب الثاني: أهداف تمني الرجوع إلى الحياة الدنيا.

المطلب الثالث: الردود على أماني الرجوع إلى الحياة الدنيا.

المطلب الرابع: ماذا لو تحققت أمنية الرجوع إلى الحياة الدنيا.

المطلب الخامس: فوائد تربوية من أماني الرجوع إلى الحياة الدنيا.

الخاتمة، وفيها النتائج والتوصيات.

قائمة المراجع.

التمهيد: التعريف بالمفردات:

سنعرِّف في هذا التمهيد بما ورد في عنوان البحث من مفردات تحتاج تعريفاً وتوضيحاً، وهما مفردتا: **التمني، والرجوع**. وذلك كالتالي:

(التّمَنِّي): هو طلب الشيء المحبوب الذي لا يتوقَّع حصوله، إما لكونه مستحيلاً، وإمّا لكونه ممكناً غير مطموعٍ في نيله[١].

قال أبو هلال العسكري: "التمني معنى في النفس، يقع عند فوت فعلٍ كان للمتمني في وقوعه نفع، أو في زواله ضرر، مستقبَلا كان ذلك الفعل أو ماضيا"[٢].

وقال ابن الأثير: "التّمَنِّي: تشهِّي حصول الأمر المرغوب فيه، وحديث النفس بما يكون وما لا يكون"[٣].

وفي مختار الصحاح: "الأُمْنِيَّة واحدة الأمانيّ، يقال في جمعها: أمانٍ، وأمانِيُّ، بالتخفيف والتشديد"[٤].

وفي تهذيب اللغة: "التمني: السؤال للرب في الحوائج"[٥].

أما **(الرُّجُوع)** فمعناه: الكَرُّ، والعَوْدُ، والانْصِرافُ، والارْتِداد[٦].

قال الراغب: "الرُّجُوعُ: العَود إلى ما كان منه البدء"[٧].

وقال ابن فارس: "رَجَعَ يَرْجِعُ رُجُوعًا، إِذَا عَادَ"[٨].

فمعنى قولنا: **تَمَنِّي الرجوع إلى الحياة الدنيا**. أي: طلب العَود إلى الحياة الدنيا.

و**تمني الرجوع** جاء في القرآن الكريم صريحا بلفظ "**الرجوع**" أو مرادفَيه "**الكرّ** و**الردّ**"، وجاء غير صريح بلفظي "**التأخير، والخروج**"، الدّالان بسياقهما على معنى الرجوع، وذلك في ثلاث عشرة آية عليها مدار هذا البحث.

---

(١) جواهر البلاغة ص٧٨. وانظر: التوقيف على مهمات التعاريف ص١٠٩، وكشاف اصطلاحات الفنون والعلوم ٥٠٩/١.

(٢) الفروق اللغوية ص١٢٣.

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر ٣٦٧/٤.

(٤) مختار الصحاح ص٣٠٠.

(٥) تهذيب اللغة ٣٨٣/١٥.

(٦) انظر: المخصص ٣٧٠/٤، ومختار الصحاح ص٢٦٨، والقاموس المحيط ص٢٨٢، وتاج العروس ٦٥/٢١.

(٧) المفردات في غريب القرآن ص٣٤٢.

(٨) مقاييس اللغة ٤٩٠/٢.

المبحث الأول: تمني الرجوع إلى الحياة الدنيا، ومواطنه.

جاء تمني الرجوع إلى الحياة الدنيا في ثلاث عشرة آية من كتاب الله تعالى، وبتأمل هذه الآيات نجد أن إحداها ذُكرت حالة عامة يحصل فيها ذلك التمني، ثم جاءت بقية الآيات بذكر مواطن محددة تُقال فيها تلك الأماني، وسننظر أولا في الآية العامة، ثم في بقية الآيات.

أما الآية التي تتحدث عن الحالة العامة فهي قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٥٢ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [الأَعْرَاف: ٥٢ - ٥٣].

تتحدث الآية عن القرآن الكريم، وأن هذا الكتاب ﴿فَصَّلْنَٰهُ﴾ أي: جعلناه مفصّلا، وبيَّنا فيه الحق من الباطل، والوعد والوعيد، ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي: بعلم شامل، ولم يقع منا فيه سهو ولا غلط، ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ أي: ينتظرون[1]، ﴿إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾ إلا وقوع ما وُعد فيه، قال الفراء: "الهاء في ﴿تَأْوِيلَهُۥ﴾ للكتاب، يريد عاقبته، وما وعد الله فيه"[2]. وقال مقاتل: "هل ينظرون يخوفهم إلا تأويله، ﴿يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ﴾ يعني العاقبة: ما وَعد الله في القرآن من الوعد والوعيد، والخير والشر، على ألسنة الرسل"[3].

ثم يأتي الحديث عن خبرٍ من لم يصدقوا بالكتاب وبما جاء فيه، وماذا يقولون، وأي شيء يتمنون: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ﴾ أي: عند ذلك يتحسر الذين تركوا الإيمان به في الدنيا، وعاملوه معاملة المنسي المهمل، ويقولون: ﴿قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾، بعد أن شاهدوا وقوع الحقائق التي تُوعدوا بها، أقروا بأن ما جاء به الرسل هو الحق، وأن ما قالوا من وعد أو وعيد هو الصدق، ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ﴾ تمنوا الشفاعة التي زعموها في الدنيا، وجادلوا بها، ﴿أَوْ نُرَدُّ﴾ وتمنوا أن يُرجَعوا إلى الحياة الدنيا، ﴿فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ لا هدف لهم غيره.

وتُختم الآية بالجواب القاطع، والخبر المؤلم لهم: ﴿قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ أي: بوجوب العذاب عليهم، ولا خسران أعظم من خسران النفس، ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ أي: ذهب عنهم من كانوا يعبدونهم من دون الله، فلا ينصرونهم، ولا يشفعون لهم، ولا

(١) انظر: جامع البيان١٠/٢٤٠، والوسيط في تفسير القرآن المجيد ٢/٣٧٤، والتحرير والتنوير ٨/١٥٣.
(٢) معاني القرآن للفراء ١/٣٨٠.
(٣) تفسير مقاتل بن سليمان ٢/٤٠.

ينقذونهم مما هم فيه[١]، قال ابن عاشور: "والمعنى: أن ما أقحموا فيه نفوسهم من الشرك والتكذيب، قد تبين أنه مفض بهم إلى تحقق الوعيد فيهم، يوم يأتي تأويل ما توعدهم به القرآن".

أما الثنتا عشرة آية الأخرى، فهي كالتفصيل للآية السابقة، فقد جاء فيها ذِكر مواطن محددة يكون فيها تمني الرجوع إلى الحياة الدنيا، وبتأمل تلك الآيات نجد أن المواطن التي يقع فيها تمني الرجوع إلى الحياة الدنيا **أربعة مواطن، وسأفرد كل موطن بمطلب، كما يلي:**

المطلب الأول: تمني الرجوع إلى الحياة الدنيا عند الموت.

جاء ذلك في موضعين من كتاب الله تعالى، تتحدث الآيات في الموضعين عن حال الكافر إذا نزل به الموت، وحانت ساعة وداعه الحياة الدنيا، وتُصور مشاعره وأحاسيسه وأمانيه، في تلك اللحظة الحرجة من حياة الإنسان، ثم تُلمح إلى تلك الذكريات التي مرت عليه خلال عمره المنصرم، فتَذَكّر أنه تركها بلا عمل ولا استعداد، فهو يتمنى الآن أن يعود، ويُصلح ما كان أفسده في حياته الفارطة، ويتدارك ما فاته. **والموضعان هما:**

الموضع الأول:

قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ٩٩ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ [المُؤْمِنُون: ٩٩ - ١٠٠]

يخبر تعالى عن حال الكافر[٢] عند احتضاره، أنه إذا جاءه الموت، وعاين نزوله، وشاهد علاماته، أدركته الحسرة، فسأل ربه الرجعة، وذلك "لعظيم ما يعاين، مما يُقْدِمُ عليه من عذاب الله، تندما على ما فات، وتلهفا على ما فرَّط فيه قبل ذلك من طاعة الله"[٣]، فيقول: ﴿رَبِّ ٱرۡجِعُونِ﴾ أي: إلى الحياة الدنيا دار العمل. ثم يوضح أنه لا يريد العودة لأجل ذات الدنيا، ولا متعها وشهواتها، ولا لتدارك شيء دنيوي فاته منها، وإنما مراده شيء واحد: ﴿لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا﴾ و"لعل" هنا للتعليل، فهو يعلل ويبرر طلبه، أنه يريد أن يعمل صالحا، ﴿فِيمَا تَرَكۡتُ﴾ أي: فيما تركت قبل اليوم من العمل، فضيعته وفرطت فيه[٤]، وكان محمد بن كعب القرظي يقرأ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ

(١) انظر: المحرر الوجيز ١٦١/٣، وتفسير ابن كثير ٤٢٦/٣.

(٢) بعض المفسرين يرى عموم الآية، ودخول عصاة الموحدين فيها. انظر: تفسير يحيى بن سلام ٤١٥/١، والجامع لأحكام القرآن ١٤٩/١٢، وأضواء البيان ٨٩٦/٥. والأقرب ما أثبته، والسياق يدل عليه.

(٣) جامع البيان ١٠٧/١٧.

(٤) انظر: المصدر السابق، وتفسير ابن كثير ٤٩٣/٥، وتيسير الكريم الرحمن ص٥٥٩.

ٱرۡجِعُونِ﴾ ثم يقول: إلى أي شيء يريد؟ إلى أي شيء يرغب؟ أجمع المال، أو غرس الغراس، أو بني بنيان، أو شق أنهار؟ ثم يقول: ﴿لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُ﴾، يقول الجبار: ﴿كَلَّآ﴾[1].

ثم جاء الرد الرباني على تلك الأمنية وذلك الدعاء، بجواب قصير حاسم: "كلا". وهي كلمةٌ للردع والزجر، أي: لا رجعة ولا إمهال. ثم قال تعالى: ﴿إِنَّهَا﴾ أي: مقالته التي تمنى فيها الرجوع إلى الدنيا: ﴿كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ أي: لا بد أن يقولها لا محالة، فقد قضى الله بتلك الندامة على كل محتضر ظالم، أو المعنى: أنها مجرد قول باللسان، لا يُجاب إليه، فلا تفيد صاحبها إلا الحسرة والندم، لفوات أوانها، وهو أيضا غير صادق في ذلك، فإنه لو رُد لعاد لما نهي عنه[2]، كما قال تعالى: ﴿بَلۡ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ مِن قَبۡلُۖ وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأَنْعَام : ٢٨].

وبعد أن جاءه الخبر الأكيد بأنه لن يرجع، جاءه خبر آخر: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ أي: مِن أمامهم، وبين أيديهم، ﴿بَرۡزَخٌ﴾ وهو: الحاجز بين الشيئين، يمنعهم من الرجوع، وهو هنا: القبر والحياة البرزخية، التي ينعم فيها المطيعون، ويُعذب العاصون والمكذبون، ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ أي: مِن موتهم إلى يوم البعث[3]. قال أبو السعود: "وهو إقناط كلي عن الرجعة إلى الدنيا؛ لما عُلم أنه لا رجعة يوم البعث إلى الدنيا، وإنما الرجعة يومئذ إلى الحياة الأخروية"[4].

الموضع الثاني:

قال الله تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [المُنَافِقُون: ١٠ - ١١].

هذه الآية تحث على الصدقة، سواء الواجبة أو المستحبة، وأنه ينبغي المسارعة إليها، ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾ "من قبل أن يرى دلائل الموت، ويعاين ما ييأس معه من الإمهال، ويَضيّق به الخناق، ويتعذر عليه الإنفاق، ويَفوت وقت القبول، فيتحسر على المنع، ويعضّ أنامله على فقد ما كان متمكنا منه"[5]، عندها ينطق من كان من أهل الإعراض والغفلة، ويتكلم بتلك الأمنية: ﴿فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ﴾ هلّا

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان ١٠٧/١٧.

(٢) انظر: الكشاف ٢٠٣/٣، وتفسير ابن كثير ٤٩٤/٥.

(٣) انظر: معالم التنزيل ٤٢٨/٥، وتيسير الكريم الرحمن ص٥٥٩، والتحرير والتنوير ١٢٤/١٨.

(٤) إرشاد العقل السليم ١٥٠/٦.

(٥) الكشاف ٥٤٤/٤.

أخرت هذا الموت عني يا رب، وأرجعتني إلى الحياة الدنيا، ومددت في أجلي ولو قليلا، قال ابن عاشور: "ووَصَفُ الأجل بـ﴿قَرِيبٍ﴾ تمهيدٌ لتحصيل الاستجابة، بناء على مُتعارف الناس؛ أن الأمر اليسير أرجى لأن يستجيبه المسؤول، فيَغلب ذلك على شعورهم حين يَسألون الله، تتساق بذلك نفوسهم إلى ما عرفوا"(١)، والهدف من طلب التأخير: ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ من مالي، ما به أنجو من العذاب، ﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، آتي بالمأمورات، وأجتنب المنهيات، كحال الصالحين، الذين آمنوا وأطاعوا، فتتنزّلت عليهم الملائكة بالبشرى عند الموت، أن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون(٢).

أما الجواب عن هذه الأمنية فهو: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾ أي: لا يُنظر أحد بعد حلول أجله المحتوم، ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾، الله أعلم وأخبر بمن يكون صادقا في قوله وسؤاله، ممن لو أُخِّر لعاد إلى شر مما كان عليه(٣).

المطلب الثاني: تمني الرجوع إلى الحياة الدنيا عند العرض على الله تعالى.

جاء ذلك في **موضع واحد:**

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ ۖ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [السَّجْدَة: ١٢-١٤]

تتحدث الآيات الكريمة عن حال المجرمين في موطن آخر من مواطن الحسرة، وتُصور هيأتهم، وتنقل كلامهم، وأنهم يتمنون الرجوع لتدارك ما فات، لكن الرد كسابقه، لا تحقيق لتلك الأمنية، ولا رجوع، ولا فرصة أخرى، بل عذاب دائم. وتفسيرها كالتالي:

يخبر الله سبحانه عن حال المجرمين يوم القيامة، حين عاينوا البعث، وقاموا بين يدي الله ﴿نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ﴾ أي: مُطَأْطِئُوها ذُلًّا وهمًّا، وخُضُوعًا لسلطانِ الله، يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ أي: بَان لنا الأمر، وصِرْنا ذَوِي بَصَر وبصيرة، ﴿فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ اردنا إلى الدار الدنيا، لنعمل بطاعتك، ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ أي: صرنا الآن موقنين بأن وعدك حق، ولقاءك حق(٤). وقد بيّن الله سبحانه هول هذا الموقف، وفظاعة ما يحل

(١) التحرير والتنوير ٢٥٣/٢٨.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن ص٨٦٥.
(٣) انظر: تفسير ابن كثير ١٣٣/٨.
(٤) انظر: تفسير ابن كثير ٣٦٢/٦، وتفسير سورة السجدة لابن عثيمين ص٦٣.

بهؤلاء المجرمين، بقوله في أول الآية: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ أي: لرأيت أمرا فظيعًا، وحالا مزعجة، وأقوامًا خاسرين، وسؤلا غير مجاب، لأنه قد مضى وقت الإمهال(١).

ثم بيّن سبحانه وتعالى قدرته وحكمته فقال: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ أي: لو أردنا لهدينا الناس جميعا، ولكنّا لم نشأ ذلك، بل شئنا أن نخلق الناس مختارين بين طريقي الهدى والضلال، وهذا هو مقتضى الحكمة، وذلك لأسباب كثيرة؛ منها أنه ﴿حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى﴾ أي: وجب وثبت، ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ أي: من أهل المعاصي والكفر، ولو كان الناس أمة واحدة على التوحيد لتخلف ما أقسم الله عليه، وهذا لا يكون(٢).

ثم جاء الرد الحاسم على تلك الأمنية، فقال تعالى: ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ﴾ أي: يقال لهؤلاء المجرمين على سبيل التقريع والتهكم: قد فات وقت الرجوع، ولم يبق إلا العذاب، فذوقوا العذاب بسبب تكذيبكم بلقائنا، واستبعادكم وقوعه، وتناسيكم له، إذ عاملتموه معاملة من هو ناسٍ له، ﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾ أي: سنعاملكم معاملة الناسي، فنترككم في العذاب، وهذا من باب المقابلة، ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ﴾ أي: العذاب الذي لا نهاية له، ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: بسبب كفركم وتكذيبكم(٣)، وتكرر هنا الأمر بالذوق، والذوق إدراك المطعومات، والأصل فيه أن يكون في أمر مرغوب في ذوقه وطلبه، والتعبير به هنا عن ذوق العذاب من باب التهكم بهم(٤).

المطلب الثالث: تمني الرجوع إلى الحياة الدنيا عند رؤية النار والعذاب.

جاء ذلك في **أربعة مواضع** من القرآن الكريم، وهي:

الموضع الأول:

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوٓاْ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأَنْعَام: ٢٧- ٢٩]

يخبر الله سبحانه وتعالى عن حال المشركين حين يُحضَرون إلى النار، ويُبين هول ذلك الموقف بقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ أي: لرأيت أمرا فظيعا جسيما، ﴿إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ أي: حين تُوقِفْهم الملائكة على النار، ليوبّخوا ويقرَّعوا، ويرون ما أُعد لهم من العذاب

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن ص٦٥٤.

(٢) انظر: المصدر السابق، والتحرير والتنوير ٢٢٣/١٦، وتفسير سورة السجدة لابن عثيمين ص٦٩.

(٣) انظر: جامع البيان ٦٠٦/١٨، وتفسير ابن كثير ٣٦٢/٦، وتيسير الكريم الرحمن ص٦٥٤.

(٤) التفسير الوسيط لطنطاوي ١٥٠/١١.

والنكال، عند ذلك تتجدد تلك الأمنية، التي تمنوها عند الاحتضار، وكرروها عند العرض على الجبار، فيقولون بتلهف وحسرة: ﴿يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ ليتنا نعود إلى الحياة الدنيا، لنصدّق ولا نكذب، ونكون مع المؤمنين لا الكافرين، ﴿بَلۡ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ مِن قَبۡلُ﴾ أي: بل ظهر لهم ما كانوا يعلمونه من أنفسهم، من صدق ما جاءت به الرسل في الدنيا، وإن كانوا يظهرون لأتباعهم خلافه، ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ هُم كَذَبة في هذه الأمنية، وإنما قصدهم أن يدفعوا بها العذاب عن أنفسهم، فلو تحققت أمنيتهم بالرجوع لعادوا لكفرهم، ولأنكروا البعث مرة أخرى، وقالوا قولتهم الأول: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ﴾[1]، قال ابن القيم: " تمنّوا أنهم يردون إلى الدنيا فيؤمنون باللَّه وآياته ولا يكذبون رسله، فأخبر سبحانه أن الأمر ليس كذلك، وأنه ليس في طبائعهم وسجاياهم الإيمان، بل سجيّتهم الكفر والشرك والتكذيب"[2].

الموضع الثاني:

قال الله تعالى: ﴿أَوۡ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلۡعَذَابَ لَوۡ أَنَّ لِي كَرَّةٗ فَأَكُونَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٨ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَتۡكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبۡتَ بِهَا وَٱسۡتَكۡبَرۡتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [الزُّمَر : ٥٨ - ٥٩]

تتحدث الآية عن حسرة الكافر المستكبر وندامته، حين يرى العذاب الذي كان يكذب به، ويستكبر عن الإيمان به، وأنه يقول حين ذاك: ﴿لَوۡ أَنَّ لِي كَرَّةٗ﴾ أي رجعة وعودة إلى الحياة الدنيا، قال ابن عاشور: "والكرّة الرجعة إلى محلٍ كان فيه الراجع، وهي مرة من الكَر، ولذلك تطلق في القرآن على الرجوع إلى الدنيا؛ لأنه رجوع لمكان سابق، وحُذف متعلّق الكرّة هنا لظهوره"[3]، ﴿فَأَكُونَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أي أنّ رغبته في الرجوع إنما ليتدارك ما فاته، وليحسن في عبادة ربه التي كان قد أساء بها، فيأتي الرد: ﴿بَلَىٰ قَدۡ جَآءَتۡكَ ءَايَٰتِي﴾ وهذا جوابٌ لنفيٍ مقدّر، كأن النادم قال: "فإني لم يتبين لي الأمر في الدنيا"، فنفى الله ذلك وقال: ﴿بَلَىٰ قَدۡ جَآءَتۡكَ ءَايَٰتِي﴾ أي: حججي الواضحة، ﴿فَكَذَّبۡتَ بِهَا وَٱسۡتَكۡبَرۡتَ﴾ عن اتباعها، ﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، فسؤالك الرد إلى الدنيا، إنما هو نوع عبث[4].

---

(1) انظر: تفسير ابن كثير ٢٤٨/٣، وتيسير الكريم الرحمن ص٢٥٤،٢٥٥، والتحرير والتنوير ١٨٧/٧.

(2) عدة الصابرين ص٣٥٧.

(3) التحرير والتنوير ٩٩/٢.

(4) انظر: المحرر الوجيز ٥٣٨/٤، وتيسير الكريم الرحمن ص٧٢٨.

الموضع الثالث:

قال الله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ يَقُولُونَ هَلۡ إِلَىٰ مَرَدّٖ مِّن سَبِيلٖ﴾ [الشُّورَى : ٤٤]

هذا أيضا خبر عن أولئك الظالمين لأنفسهم، في ذلك الموقف العظيم، وأنهم يقولون حين يشاهدون العذاب بأعينهم: ﴿هَلۡ إِلَىٰ مَرَدّٖ مِّن سَبِيلٖ﴾ وهو استفهامٌ للتمني، أي: هل من حيلة أو طريق نسلكه للرجوع إلى الحياة الدنيا، لنتدارك ما فات، ونعمل للنجاة من هذا العذاب، وهذه المقالة منهم تدل على سوء وشناعة ما اطّلعوا عليه(١).

الموضع الرابع:

قال الله تعالى: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوۡمَ يَأۡتِيهِمُ ٱلۡعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَآ أَخِّرۡنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ نُّجِبۡ دَعۡوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَۗ أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ أَقۡسَمۡتُم مِّن قَبۡلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٖ ٤٤ وَسَكَنتُمۡ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَتَبَيَّنَ لَكُمۡ كَيۡفَ فَعَلۡنَا بِهِمۡ وَضَرَبۡنَا لَكُمُ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾ [إِبۡرَاهِيم : ٤٤ - ٤٥].

يأمر الله عز وجل رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم، أن يُحذِّر الناس يوم القيامة، الذي يحلُّ فيه العذاب، قال ابن الجوزي: "وإنما خصه بذكر العذاب، وإن كان فيه ثواب، لأن الكلام خرج مخرج التهديد"(٢)، فتكون أمنية الظالمين وسؤالهم: ﴿رَبَّنَآ أَخِّرۡنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ﴾ أخر عنا هذا العذاب، وأرجعنا إلى الحياة الدنيا، وامنحنا مدة يسيرة، وذلك لكي: ﴿نُّجِبۡ دَعۡوَتَكَ﴾ ولا نردها، ولا نُعرض عنها، ﴿وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ﴾ فيما أمروا به من الإيمان والطاعة. فيأتي الجواب المليء باللوم والتقريع، والمُضاعف للحسرة والندم: ﴿أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ أَقۡسَمۡتُم مِّن قَبۡلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٖ﴾ ألم تحلفوا في الدنيا أنه لا انتقال لكم عما أنتم فيه، وأنه لا فناء ولا بعث ولا جزاء، أي: فذوقوا هذا بذاك(٣).

وقد قامت عليكم حجة ظاهرة، هي: ﴿وَسَكَنتُمۡ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ أي: سكنتم في الدنيا في مساكن الذين ظلموا أنفسهم بالكفر، من الأمم التي كانت قبلكم، ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمۡ كَيۡفَ فَعَلۡنَا بِهِمۡ وَضَرَبۡنَا لَكُمُ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾، أي: قد رأيتم وبلغكم ما أحللنا بتلك الأمم، وضربنا لكم الأمثال الواضحة التي لا تدع أدنى شك في القلب إلا أزالته، ومع هذا

(١) انظر: المحرر الوجيز ٤١/٥، وتفسير ابن عثيمين لسورة الشورى ص٣١٤.
(٢) زاد المسير ٥١٨/٢.
(٣) انظر: تفسير السمعاني ١٢٣/٣، وتفسير ابن كثير ٥١٦/٤.

لم يكن لكم فيهم معتبر، ولم تنفع فيكم تلك الآيات، بل أعرضتم وأصررتم على باطلكم، حتى صار ما صار، ووصلتم إلى هذا اليوم الذي لا ينفع فيه اعتذار[1].

المطلب الرابع: تمني الرجوع إلى الحياة الدنيا عند العذاب في النار.

جاء تمني الرجوع إلى الحياة الدنيا أثناء العذاب في النار، في خمسة مواضع من القرآن الكريم، ونلاحظ أن المواضع في هذا الموطن أكثر، وذلك لأن حاجتهم هنا أشد، وحسرتهم أعظم، وكذلك لأنهم في مواطن سابقه رأوا العذاب والنار، أما الآن فقد دخلوا ذلك العذاب، وصاروا من سكان النار، وتحول علمهم بذلك من عين اليقين إلى حق اليقين، قال ابن كثير: "يسألون الرجعة وهم وقوف بين يدي الله عز وجل في عرصات القيامة، فلا يجابون، ثم إذا رأوا النار وعاينوها ووقفوا عليها، ونظروا إلى ما فيها من العذاب والنكال، سألوا الرجعة أشد مما سألوا أول مرة، فلا يجابون، فإذا دخلوا النار وذاقوا مسها وحسيسها ومقامعها وأغلالها، كان سؤالهم للرجعة أشد وأعظم"[2].

وهذه الخمسة مواضع هي:

الموضع الأول:

قال الله تعالى: ﴿قَالُواْ وَهُمۡ فِيهَا يَخۡتَصِمُونَ ٩٦ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٩٧ إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٩٨ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٩٩ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٖ ١٠١ فَلَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ فَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الشُّعَرَاء : ٩٦ - ١٠٢]

يخبر الله سبحانه عن سكان النار أنهم يختصمون ويتجادلون فيها، ويقولون متحسرين: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ يُقِرُّون أنهم كانوا في حياتهم الماضية في باطل ظاهر واضح، ووصْفُهم له بالوضوح يبين شدة ندمهم وحسرتهم، وكذلك يبينه أنهم أقسموا على ذلك وتعجبوا كيف صدر منهم، قال ابن عاشور: "وجيء في القسم بالتاء دون الواو والباء؛ لأن التاء تختص بالقسم في شيء متعجب منه"[3]. ثم خاطبوا معبوداتهم التي صارت مثلهم حطبا لجهنم: ﴿إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ فذكروا أغرب ما كان في ذلك الضلال؛ أنهم سووا الخالق المالك العظيم، ببعض مخلوقاته المملوكة الحقيرة[4].

(١) انظر: جامع البيان ٧١٦/١٣، وتفسير ابن كثير ٤٤٣/٤، وتيسير الكريم الرحمن ص٤٢٨.

(٢) تفسير ابن كثير ١٣٣/٧. بتصرف يسير.

(٣) التحرير والتنوير ١٥٣/١٩.

(٤) انظر: إرشاد العقل السليم ٢٥٢/٦.

ثم عادوا باللوم على من زين لهم ذلك الضلال، فقالوا: ﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ من الرؤساء والكبراء. ثم لمّا تذكروا ما كان يلجأ له الناس في دنياهم، من شفيع يتوسط في جلب الخير، أو صديق يواسي أو يسلّي أو يتوجع، تمنوا ذلك، لكنهم يقرُّون بأنفسهم أن ذلك لن يجدي اليوم شيئا: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾، وأكدوا عدم جدوى ذلك بالإتيان بـ "من" الزائدة في سياق النفي. ثم نطقوا تلك الأمنية البعيدة المنال: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لو يتاح لنا رجعة إلى الحياة الدنيا، لنكون من أهل الإيمان والطاعة، الذين يسعدون الآن في الجنة. ثم تنتهي الآيات دون أن نرى ردا أو جوابا على أمنيتهم، وذلك لأن أمنيتهم أمنية فارغة لا طائل وراءها، ولو حُققت لهم لما انتفعوا بها، فلا جواب لهم إلا النار، ولا جديد بعد تلك الأمنية إلا العذاب(١).

الموضع الثاني:

قال الله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البَقَرَة : ١٦٦ - ١٦٧]

يخبر تعالى عن حال أهل النار، وما يحدث بينهم من جدال وخصام: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ﴾ أي: أن المتبوعين من الرؤساء والسادة يتبرؤون ممن كان يتبعهم على الضلال، ويتنصلون من مواعيد نفعهم التي وعدوهم بها في الدنيا، ﴿وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ أي: عاينوا حقيقة العذاب، وتقطعت بهم الحيل وأسباب الخلاص، ولم يجدوا عن النار معدلا ولا مصرفا، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ أي: ليت لنا رجعة إلى الدنيا، وذلك لغرض واحد: ﴿فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ﴾ هناك، ﴿كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا﴾ اليوم، فلا نلتفت إليهم، بل نوحد الله وحده بالعبادة. وهيهات، فات الأمر، وليس الوقت وقت إمهال وإنظار، ومع هذا فهم كذبة، فلو رُدوا لعادوا لما نهوا عنه، وإنما هو قول يقولونه، وأماني يتمنونها، حنقا وغيظا على المتبوعين لمّا تبرؤوا منهم(٢).

ثم أكّد سبحانه تتابع الحسرات عليهم فقال: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ﴾ أي: كتبرؤ بعضهم من بعض يريهم الله أعمالهم حسرات، والحسرة: شدة الندم والكمد، وذلك عندما يرون أعمالهم تذهب وتضمحل فلا ينتفعون بها، كما قال الله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفُرْقَان : ٢٣]، ثم يأتي الختام: ﴿وَمَا

(١) انظر: المصدر السابق، والتحرير والتنوير ١٥٥/١٩.

(٢) انظر: إرشاد العقل السليم ١٨٧/١، وتيسير الكريم الرحمن ص٧٩، والتحرير والتنوير ٩٧/٢.

هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ أي أنّ تمنيهم الرجوع إلى الدنيا، وحدوث الخيبة لهم من صنع رؤسائهم، لا فائدة فيه إلا إدخال ألم الحسرات عليهم، وإلا فهم باقون في النار على كل حال(١).

الموضع الثالث:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ۝١٠ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ۝١١ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُواْ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ﴾ [غَافِر: ١٠ - ١٢]

يخبر تعالى عن الفضيحة والخزي الذي يصيب الكافرين، وسؤالهم الرجعة، والخروج من النار، وامتناع ذلك عليهم، وأن الملائكة توبخهم، وتناديهم وهم في غمرات النيران يتلطفون: ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾، المقت: شدة البغض والاحتقار، والمعنى: لمقت الله إياكم في الدنيا حين كان يُعرض عليكم الإيمان بالله فتكفرون؛ أشد من مقتكم اليوم أنفسكم حين دخلتم النار. فتلطفوا في السؤال، وقدّموا بين يدي كلامهم مقدمة، فقالوا: ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا﴾ أي: قدرتك عظيمة، فإننا لم نكن شيئا مذكورا، فأحييتنا، ثم أمتنا، ثم أحييتنا، فأنت قادر على ما تشاء، وقد ندمنا واعترفنا بذنوبنا، ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ أي: فهل أنت مجيبنا إلى أن تعيدنا إلى الدار الدنيا؟ فإنك قادر. فلم ينفعهم ذلك شيئا، ووُبخوا على عدم فعل أسباب النجاة، فقيل لهم: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُواْ﴾ فذاك الذي أنزلكم هذا المنزل، أنكم تكفرون بالإيمان، وتؤمنون بالكفر، ترضون بالشر والفساد، وتكرهون الخير والصلاح، ثم أتى الختام: ﴿فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ﴾ أي: فالقضاء لله سبحانه، وقد حكم عليكم بالخلود الدائم، وحكمه لا يغير ولا يبدل(٢).

الموضع الرابع:

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ۝٣٦ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٤٧٨/١، وإرشاد العقل السليم ١٨٧/١، والتحرير والتنوير ١٠٠/٢.

(٢) انظر: جامع البيان ٢٨٨/٢٠، والمحرر الوجيز ٥٤٩/٤، وتفسير ابن كثير ١٣٣/٧، وتيسير الكريم الرحمن ص٧٣٣.

نَعْمَلْ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فَاطِر : ٣٦ - ٣٧]

هذا حال الكافرين في جهنم: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ لا موت يريحهم من النار، ولا تخفيف للعذاب، ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ﴾ أي: هذا جزاء كل من كفر بربه وكذّب بالحق، ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾ أي: ينادُون فيها، ويجأرون إلى الله عز وجل: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا﴾ هذه أمنيتهم، أن يخرجوا ويرجعوا إلى حياتهم الدنيا، والغاية من ذلك: ﴿نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾، فيقال لهم توبيخا، وتنديما، وإقامة للحجة: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ أي: أو ما عشتم في الدنيا أعمارا لو كنتم ممن ينتفع بالحق لانتفعتم به في مدة عمركم، ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ أي: وجاءكم من الله منذر ينذركم، وهو الرسول صلى الله عليه وسلم، هذا اختيار ابن جرير، ورجّحه ابن كثير. ثم الختام المؤلم: ﴿فَذُوقُواْ﴾ أي: فذوقوا عاقبة تكذيبكم، وهو تهكمٌ بصيغة الأمر، ﴿فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ فما لكم اليوم من ناصر يدفع عنكم العذاب(١).

الموضع الخامس:

قال الله تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [المُؤْمِنُون : ١٠٧ - ١١١]

نختم بهذه الآيات التي سيكون الرد فيها أشد وأفظع رد يسمعه أصحاب تلك الأماني، كما أنها حوت آخر كلمات ينطق بها أهل النار: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا﴾ أرجعنا إلى الحياة الدنيا مرة أخرى، ﴿فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾ إن رجعنا إلى ما سلف منا، فنحن ظالمون مستحقون للعقوبة، وهم كاذبون في وعدهم هذا، لذا كان الجواب الذي لا أشد عليهم منه: ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ أي: امكثوا فيها صاغرين مهانين أذلاء، ولا تعودوا إلى سؤالكم هذا، فإنه لا جواب لكم عندي(٢). قال الزمخشري: "ذلوا فيها وانزجروا كما تنزجر الكلاب إذا زجرت، قيل: هو آخر كلام يتكلمون به، ثم لا كلام بعد ذلك إلا الشهيق والزفير"(٣). قال السعدي: "وهذا القول ــ نسأله تعالى العافية ــ أعظم قول على الإطلاق يسمعه المجرمون في التخييب، والتوبيخ، والذل، والخسار، والتأييس

(١) انظر: جامع البيان ٣٨٧/١٩، وتفسير ابن كثير ٢٥٦،٢٥٢/٦، وتفسير ابن عثيمين لسورة فاطر ص٢٦٢،٢٦٥، والتفسير المنير ٢٧٣/٢٢.
(٢) انظر: تفسير ابن كثير ٤٩٨/٥، وتيسير الكريم الرحمن ص٥٦٠.
(٣) الكشاف ٢٠٥،٢٠٤/٣.

من كل خير، والبشرى بكل شر، وهذا الكلام والغضب من الرب الرحيم، أشد عليهم وأبلغ في نكايتهم من عذاب الجحيم"[1].

ثم ذكر الحال التي أوصلتهم إلى العذاب، وقطعت عنهم الرحمة فقال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا﴾ أي: فسخرتم منهم في دعائهم إياي، وتضرعهم إلي، واشتغلتم بذلك السفه ﴿حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى﴾ أي: حملكم بغضهم على أن نسيتم معاملتي، وتركتم ذكري، ﴿وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ بسبب إيمانهم ودعائهم، ﴿إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟﴾ على أذاكم، وعلى طاعتي، فكان جزاؤهم: ﴿أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ بالنعيم المقيم، والنجاة من الجحيم[2].

المبحث الثاني: هدايات من آيات تمني الرجوع إلى الحياة الدنيا.

من تأمل الآيات السابقة في تمني الرجوع إلى الحياة الدنيا، سيخرج منها بدلالاتٍ وهدايات نافعة كثيرة، منها أنها بيّنت لنا الحقائق التي أدت إلى تلك الأماني، ووضّحت الأهداف المزعومة إنْ تحقق ذلك الرجوع، وهل سيتحقق ذلك الرجوع أم لا؟ بل أجابت عن سؤال مهم؛ هو مدى الصدق في ذلك التمني؛ وهل إذا تحقق الرجوع ستتحقق الوعود؟ كما أنها بيّنت لنا فوائد وهدايات تربوية نافعة للمسلم في سلوكه وفكره، وفي المطالب التالية تفصيلٌ وتوضيح لكل ذلك:

المطلب الأول: الحقائق التي أدت إلى تمني الرجوع إلى الحياة الدنيا.

لم يأت تمني الرجوع إلى الحياة الدنيا بلا سبب ولا مقدمات، فقد كانت هناك أسبابٌ ودوافعُ أدت إلى صحوة ذلك الإنسان من غفلته، وتمنيه الرجوع إلى الحياة الدنيا، ومحاولته استدراك ما فات، ونستطيع التعبير عن تلك الأسباب بأنها **حقائق تكشّفت وصارت واقعا مشهودا**، فما كان يُكذّبُ به الكافر صار يراه أمامه عيانا، وما كان يسمعه من حقائق غيبية ذكرها الله له في كتابه، أو على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم؛ صارت أشياء محسوسة مشاهدة، وهذا ما ذكره الله عز وجل في قوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأَعْرَاف : ٥٢ - ٥٣]، فالآية تتحدث عن وعود القرآن الكريم، وما جاء فيه من حقائق مفصلة واضحة، أدركها المؤمن في وقت مبكر، فصدّق بالوحي وآمن بالغيب، أما المُعْرضُ الغافل، ومن به عمى

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٥٦٠.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير ٤٩٩/٥، وتيسير الكريم الرحمن ص٥٦٠.

عن نور الوحي، فقد كذّب تلك الوعود، واستبعدها وأنكرها، فتوعده الله أنه إن أنكر تلك الحقائق لأنها غيبية، غير مشاهدة ولا محسوسة؛ فسيأتي تأويلها، وستقع، وسيشاهدها بعينه، وسيدرك حقيقتها بنفسه، لكن هذا الإدراك لن ينفعه، لأنه جاء بعد فوات أوانه.

وقد مر بنا في الآيات قول الكافر: ﴿رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السَّجْدَة: ١٢]، فهو يُقر بأن مشاهدته تلك الحقائق كشفت عنه الغشاوة، وجلبت له اليقين، بعد أن رآها ببصره، ورؤيتها بالبصر جالبةٌ للإيمان بلا شك، لكن ذلك لن ينفعه؛ لأنه إيمان اضطراري، ولأنه إيمان بالشهادة لا بالغيب. ومن خلال آيات تمني الرجوع التي تحدثنا عنها في المبحث الأول، تتضح لنا تلك الحقائق التي تكشفت ودفعت إلى تمني الرجوع إلى الحياة الدنيا، وهي **خمس حقائق** كبرى:

الحقيقة الأولى: حقيقة الموت.

قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ﴾ [المُؤْمِنُون: ٩٩]، وقال تعالى: ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ﴾ [المُنَافِقُون: ١٠]، موطن الاحتضار ونزول الموت هو أول موطن يتمنى فيه أولئك المفرطون الرجوع إلى الحياة الدنيا، وهي اللحظة التي أحسُّوا فيها بالموت، وذاقوا سكرته، وأدركوا حقيقته، والحديث عن الموت كثير في القرآن الكريم، لكنهم لم يلتفتوا لذلك التحذير، ولم يأبهوا بالموت حتى عاينوه وأدركوا حقيقته، فتمنوا الرجوع إلى الحياة الدنيا ليستدركوا، وأنّى لهم ذلك.

الحقيقة الثانية: حقيقة يوم القيامة.

لقد أنكر الكفار البعث والقيامة، وأقسموا أنه لا انتقال لهم عما هم فيه، وأنه لا فناء ولا بعث ولا جزاء، قال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ أَقۡسَمۡتُم مِّن قَبۡلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٖ﴾ [إِبْرَاهِيم: ٤٤]، ثم جاءهم ما كانوا ينكرون، ورأوا حقيقة ما كانوا يجحدون، قال تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا﴾ [السَّجْدَة: ١٢]، وقال تعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ﴾ [الأَعْرَاف: ٥٣]، لقد كان الرسل عليهم السلام يذكرون لأقوامهم أنه سيأتي يومٌ عظيم ثقيل، يومٌ لا عمل فيه، بل جزاء وحساب وقصاص، يوم قريب يُعرض فيه الناس على ربهم صفا، ويجدون كل ما عملوه محضرا، لكن تلك الوعود كانت عن شيء غائب، فلم يصدق بها إلا المؤمنون، أما الكفار المُعرضون فقد كذّبوا،

وربما استهزؤا وسخروا، فلمّا وقع ما أخبر الله به، وشاهده هؤلاء الجاحدون، ورأوا تفاصيل ما وُعدوا به؛ أيقنوا أنها الحقيقة، وأدركوا ما وقعوا فيه من خسارة لا مثيل لها.

الحقيقة الثالثة: حقيقة النار والعذاب.

لقد أنذر الله عباده وحذرهم ناره وعذابه، فكذّب من كذّب، وأعرض من أعرض، حتى جاءهم العذاب، قال تعالى: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ [إِبْرَاهِيم: ٤٤]، وشاهد أولئك المكذبون العذاب بأعينهم، قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾ [الشُّورَى : ٤٤]، وأُوقفوا على النار، قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ﴾ [الأَنْعَام: ٢٧]، بل دخلوها، قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [فَاطِر: ٣٧]، وذاقوا عذابها ونكالها، قال تعالى: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [السَّجْدَة: ١٤]، فأدركوا بأنفسهم حقيقة النار والعذاب، وهذا ما دفعهم لتمني الرجوع إلى الحياة الدنيا، ليُصدِّقوا بما كانوا ينكرون.

الحقيقة الرابعة: حقيقة أئمة الضلال.

قال الله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ [البَقَرَة : ١٦٦]، هذه من أشد الحقائق إيلاما لمن اتبع رؤوس الكفر والضلال وأطاعهم، فها هم يتفاجؤون برؤسائهم وكبرائهم يتبرؤون منهم، وقد كانوا في الدنيا قدوتهم، وكانوا يزينون لهم ويعدونهم، فلما جاءت القيامة وما فيها، ووقع الوعد الحق، انكشفت حقيقة هؤلاء المتبوعين، وظهرت ندامة التابعين.

الحقيقة الخامسة: حقيقة الشفاعة.

الكفار في حياتهم الدنيا جعلوا لله سبحانه شركاء في عبادته، وعللوا ذلك بأن هؤلاء سيكونون لهم شفعاء عند الله، قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يُونُس : ١٨]، لكن يوم القيامة يكتشفون أن تلك الشفاعة غير نافعة، ويعترفون بذلك ويقولون: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ﴾ [الشُّعَرَاء: ١٠٠]، ويتمنون: ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَا﴾ [الأَعْرَاف: ٥٣]، لقد تكشفت حقيقة أخرى لهؤلاء الكفار، وهي حقيقة الشفعاء الذين كانوا يتخذونهم في الدنيا، ويرجون نفعهم وشفاعتهم، ثم في هذا الوقت الذي يحتاجونهم فيه تبيّنت لهم الحقيقة، وبطل ما كانوا يظنون ويرجون، وصاروا في حسرة وندامة، على شيء حسبوه حقيقة فأضحى وَهْما، وظنوه ماء فوجدوه سرابا.

المطلب الثاني: أهداف تمني الرجوع إلى الحياة الدنيا.

عرَفنا في المطلب السابق الحقائق التي دفعت هؤلاء الخاسرين إلى تمني الرجوع إلى الحياة الدنيا، وسأعرض في هذا المطلب الأهداف التي يرجونها من تلك العودة التي تمنوها، وهي أهدافٌ تدور حول محاولة إدارك ما فات، وتغيير ما كانوا عليه من حال.

وسأتتبع في هذا المطلب تلك الأهداف، وأفرد كلا منها بعنوان، وذلك كالتالي:

الهدف الأول: أن يعملوا صالحا غير الذي عملوا.

هذا هو هدفهم الأهم والأعم، وقد ألحوا به، وكرروه في عدة مواطن، أولها عند الاحتضار، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ٩٩ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُ﴾ [المُؤْمِنُون: ٩٩- ١٠٠]، وقال تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [المُنَافِقُون: ١٠]، ثم عند العرض على الجبار سبحانه، قال تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا﴾ [السَّجْدَة: ١٢]، ثم يكررون التمني إذا دخلوا النار، قال تعالى: ﴿وَهُمۡ يَصۡطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ﴾ [فَاطِر: ٣٧]، هذا هو هدفهم الأسمى من ذلك الرجوع الذي تمنوه، وهو أن يعملوا الصالحات التي تركوها وأعرضوا عنها في حياتهم الدنيا، وأن يُقبلوا على تلك الأعمال الصالحة التي رأوا نفعها لأهلها، ورأوا جزاء من عمل بها، بينما هم قد قضوا أعمارهم في أعمال أخرى، ثم تفاجؤوا بأن تلك الأعمال كانت ضلالا، وأن كل جهدهم وسعيهم كان عليهم وبالا.

الهدف الثاني: أن يجيبوا الدعوة، يتبعوا الرسل.

عندما يتمنى الكفار أن يرجعوا إلى الحياة الدنيا، يبيِّنون هدفهم من ذلك فيقولون: ﴿رَبَّنَآ أَخِّرۡنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ نُّجِبۡ دَعۡوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَۗ﴾ [إِبْرَاهِيم: ٤٤]، ويؤكدون أنهم إن عادوا للدنيا فلن يعودوا للتكذيب بآيات الله: ﴿يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾ [الأَنْعَام: ٢٧]، لقد رأوا عاقبة الكفر والتكذيب بآيات الله، ورأوا في المقابل عاقبة إجابة الدعوة والتصديق بما جاءت به الرسل، فتمنوا أن يرجعوا إلى الحياة الدنيا؛ ليتبعوا الرسل، ويهتدوا بآيات الله، ولا يكونوا من أهل التكذيب والإعراض، الذي ذاقوا ثمرته المُرّة، وقاسوا عذابه ونكاله.

الهدف الثالث: أن يكونوا من المؤمنين.

من كلمات أهل تلك الأماني أيضا أن يقولوا: ﴿يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأَنْعَام: ٢٧]، ويقولوا: ﴿فَلَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ فَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الشُّعَرَاء: ١٠٢]، وذلك أنهم في تلك المواطن الصعبة رأوا المؤمنين وهم يفوزون، وينجون، وتبيضُّ وجوههم، ويأخذون كتبهم بأيمانهم، ويساقون إلى الجنة زمرا، لذلك يتمنون أن يرجعوا إلى الحياة الدنيا، ليكونوا مع أولئك المؤمنين الفائزين، وليعملوا كما عملوا، ويسلكوا الطريق الذي سلكوا، ويكونوا معهم في إيمانهم وتصديقهم، فينجون كما نجوا، ويفوزون كما فازوا.

الهدف الرابع: أن يكونوا من المحسنين.

قال الله تعالى: ﴿أَوۡ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلۡعَذَابَ لَوۡ أَنَّ لِي كَرَّةٗ فَأَكُونَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الزُّمَر: ٥٨]، الإحسان يكون مع الله في عبادته، ومع الخلق في التعامل معهم، ويوم القيامة يتضح أن المحسنين في الدنيا نفعهم إحسانهم، وأنهم لم يجازوا بالإحسان إلا أحسانا أعظم، لذلك يتمنى الكافر أن يعود للحياة الدنيا ليكون من هؤلاء المحسنين، فيحسن في عبادة ربه، ويحسن في تعامله مع خلقه، ليجد في الآخرة ما وجد المحسنون.

الهدف الخامس: أن يَتصدّقوا، ويكونوا من الصالحين.

يتمنى الظالم أن يرجع إلى الحياة الدنيا، فيقول في أمنيته: ﴿رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [المُنَافِقُون: ١٠]. هدفه من هذا الرجوع إلى الحياة الدنيا أن يتصدق بالصدقة التي منعها، وأن يصبح من الصالحين الذين كان يعاديهم ويتباعد عنهم، وذلك أنه رأى نفع الصدقة لأهلها، وأن كل امرئ في ظل صدقته يوم القيامة، ورأى جزاء الصالحين الذين استعدوا لهذا اليوم.

الهدف السادس: أن يتبرؤوا ممن تبرأ منهم.

يوم القيامة يتبرأ زعماء الضلال من أتباعهم، قال تعالى: ﴿إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ﴾ [البَقَرَة : ١٦٦]، وتنتهي بينهم الصلات التي كانت في الدنيا، قال تعالى: ﴿وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ﴾ [البَقَرَة : ١٦٦]، عندها يتمنى الأتباع الرجوع إلى الحياة الدنيا، فيقولون: ﴿لَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ فَنَتَبَرَّأَ مِنۡهُمۡ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا﴾ [البَقَرَة: ١٦٧]، هدفهم من ذلك الرجوع أن يتبرؤوا ممن تبرأ منهم، وأن يشفوا صدورهم ممن تسبب لهم بهذا الشر، ثم تخلى عنهم في ذلك الحرج.

المطلب الثالث: الردود على أماني الرجوع إلى الحياة الدنيا.

ماذا بعد كل تلك الأماني؟ وما الرد على تلك الصرخات والاستغاثات؟ وهل سيُمكّن أصحاب تلك الأماني من الرجوع إلى الحياة الدنيا، وتحقيق أهدافهم التي ذكروها وتمنوا الرجوع لتحقيقها؟ لقد تعددت الردود على تلك الأماني، وكلها ردود تزيدهم حسرة وندما، وتفيد ألا رجوع، ولا خروج، ولا تحقيق لتلك الأماني. ونستطيع أن نُجمل تلك الردود فيما يلي:

الرد الأول: التصريح بأن أمانيهم لن تُحقق.

هذا الجواب واضح ومكرر، وقد جاء التصريح به في كلمة "كلا" الرادعة الزاجرة: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المُؤْمِنُون: ١٠٠]، أي: كلا لا تحقيق لتلك الأمنية، ولا رجوع إلى الحياة الدنيا مرة أخرى، بل هو عذاب ونكال في البرزخ، ثم نار حامية خالدين فيها أبدا، وفي تمنيهم الرجوع عند الموت وتأخيرهم قال الله تعالى: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾ [المُنَافِقُون: ١١]. وعن طلبهم الخروج من النار قال الله لهم: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البَقَرَة : ١٦٧]، فالردود صريحة في أن أمانيهم لن تحقق، وسيأتي بقية الردود التي تؤكد ذلك وتزيدهم حسرة وندما.

الرد الثاني: التهكم بهم بأمرهم أن يذوقوا العذاب.

في الآيات الماضية جاء الأمر بذوق العذاب ثلاث مرات، في قوله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فَاطِر: ٣٧]، وقوله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ﴾ [السَّجْدَة: ١٤]، وقوله تعالى: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [السَّجْدَة: ١٤]، وهذا تهكم بصيغة الأمر، فالذوق إدراك المطعومات، والأصل فيه أن يكون في أمر مرغوب، لكن جاء التعبير به هنا عن ذوق العذاب من باب التهكم بهم، وهُم أهل لذلك، ومستحقون له.

الرد الثالث: تقريعهم بأن الحجج قد أقيمت عليهم، وبأن من انتفع بتلك الحجج قد نجى.

بينما هم يتمنون الرجوع إلى الحياة الدنيا، يُذكّرهم الله بأن تلك الحياة كانت حجة عليهم، حيث منحهم فيها العمر الكافي للتذكر والاعتبار، وأرسل إليهم الرسول صلى الله عليه وسلم لينذرهم، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ [فَاطِر: ٣٧]. وفي هذا تقريع وتوبيخ كافي، ثم يأتي تقريع آخر يزيدهم حسرة وندامة، حيث يبين لهم حال من أتته تلك الحجج وانتفع بها، ففاز ولم يخسر كخسارتهم: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [المُؤْمِنُون : ١٠٩ - ١١١].

الرد الرابع: تذكيرهم بأعمالهم السيئة التي عملوها في الدنيا.

مما نلاحظه في الآيات الكريمة الإكثار من تذكير أصحاب تلك الأماني بأعمالهم السيئة التي عملوها في الدنيا، قال تعالى: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [السَّجْدَة: ١٤]، في هذه الآية إجمالٌ لتلك الأعمال، ثم في الآيات الأخرى جاء التوضيح والتفصيل في أعمالهم السيئة التي ارتكبوها، **وهي:**

١-نسيانهم لقاء الله واليوم الآخر، وتركهم الاستعداد له، قال تعالى: ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ [السَّجْدَة: ١٤].

٢-إنكارهم البعث، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ [إِبْرَاهِيم: ٤٤].

٣-كفرهم وشركهم، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُواْ﴾ [غَافِر: ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الزُّمَر: ٥٩].

٤-تكذيبهم بآيات الله، قال تعالى: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا﴾ [الزُّمَر: ٥٩].

٥-استكبارهم في الأرض، قال تعالى: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ﴾ [الزُّمَر: ٥٩].

٦-سخريتهم من المؤمنين، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ [المُؤْمِنُون: ١٠٩ - ١١٠].

٧-عدم اعتبارهم بما أراهم الله من مواعظ وحجج، قال تعالى: ﴿وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [إِبْرَاهِيم: ٤٥].، أي: فأعرضتم، ولم تنتفعوا بما في ذلك من عبرة لكم.

٨-أنهم كانوا يدركون صدق ما جاءت به الرسل، ومع ذلك يظهرون لأتباعهم خلافه، قال تعالى: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾ [الأَنْعَام: ٢٨] .أي: ما كانوا يخفونه عن أتباعهم، مع يقينهم بأنه الحق.

أما عن **أسباب تذكيرهم بتلك الأعمال**، والإكثار من ذكرها، والتفصيل فيها، فيمكن تلخيصها في التالي:

١-توبيخهم وتقريعهم وزيادة حسرتهم.

٢- توضيحٌ لهم عن سبب هذا المصير الذي صاروا إليه.

٣- إعلامٌ لهم بأنهم غير مستحقين لتحقيق أمنيتهم وإجابة سؤالهم وطلبهم.

٤- تحذير للعباد أن يسلكوا طريقهم، ويقعوا فيما وقعوا فيه.

٥- تبيينٌ لشؤم الكفر والمعاصي، وعاقبتهما الشنيعة.

الرد الخامس: تقنيطهم بانعدام الناصر، ونفاذ القضاء.

بعد أن يأمرهم الله عز وجل بأن يذوقوا العذاب، يُعقّب ذلك بما يقنطهم من أسباب النجاة، فيقول تعالى: ﴿فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾، وفي موضع آخر يخبر عن حالهم بقوله: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ [الأَعْرَاف: ٥٣]. أي: ذهب عنهم ما كانوا يعبدونهم من دون الله، ومن كانوا يرجون نفعهم من شفعاء ومتبوعين، فلا ينصرونهم، ولا ينقذونهم مما هم فيه، ثم يقنطهم أكثر بقوله تعالى: ﴿فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ﴾ [غَافِر: ١٢]، أي: فالقضاء لله سبحانه، وقد حكم عليكم بالخلود الدائم، وحكمه لا يغير ولا يبدل، فلن نحقق أمانيكم، ولن نخرجكم من العذاب أبدا.

الرد السادس: إفجاعهم بأن الله قد تركهم، وبأنهم قد خسروا أنفسهم.

الجزاء من جنس العمل، فبما أنهم نسوا الله في الدنيا دار العمل، فسينساهم نسيان ترك في الآخرة دار الجزاء، فيقول لهم بعبارة موجزة موجعة: ﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾، وذلك أنكم: ﴿نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾، ومن تركه الله وتخلى عنه فهو الخاسر، لذلك يُخبر الله عن حالهم فيقول: ﴿قَدْ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الأَعْرَاف: ٥٣]، وهذه خسارة لا أكبر منها، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الزُّمَر : ١٥].

الرد النهائي: وهو قول الله تعالى لهم: ﴿ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾.

هذا هو أشد رد يسمعه أصحاب تلك الأماني، رد فيه إهانة وتحقير لا أقسى منه، وتيئيس وإقناط لا أشد منه، مع أنهم دعوه بالربوبية، واعترفوا بذنوبهم، ووعدوا بإحسان العمل إن استجاب لهم، فقالوا: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المُؤْمِنُون: ١٠٦ - ١٠٨]، رد عليهم بهذه الكلمة المرعبة لقلوبهم ﴿ٱخْسَـُٔواْ﴾ الكلمة التي تقال عند زجر الكلاب وتحقيرها، وذلك أنهم بكفرهم وتكذيبهم صاروا أهلا لتلك الإهانة، ومحلا لذلك الاحتقار، ثم قال: ﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾، فمنعهم حتى من الشكوى التي ربما يكون فيها شيء من تخفيف الألم، فلا كلام لهم بعد هذا، وإنما عذابٌ وآلام أبدية سرمدية.

المطلب الرابع: ماذا لو تحققت أمنية الرجوع إلى الحياة الدنيا؟

هذا سؤال أجابت عنه الآيات بوضوح، وهو سؤال في غاية الأهمية: ماذا لو تحققت تلك الأمنية؟ ماذا لو أن الله استجاب لهم، وأعادهم للحياة الدنيا؟

الجواب واضح صريح: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأَنْعَام: ٢٨]، لو أرجعهم الله إلى حياتهم الدنيا، ومكّنهم من عمل الصالحات وتدارك ما فات؛ فلن يفعلوا، ولن يفوا بوعودهم التي قطعوها على أنفسهم، بل: ﴿لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾،

سيعودون لكفرهم واستكبارهم وتكذيبهم، ولن يكونوا مع المؤمنين ولا المحسنين، ولن يتبرؤوا من أئمتهم في الضلال، ولن يعملوا غير الذي كانوا يعملون، ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ في أمنيتهم، وكاذبون في وعودهم التي ذكروا، بل لو ردوا لعادوا حتى لمقالاتهم السابقة، وكلماتهم الكافرة: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأَنْعَام: ٢٩]، وهذا من أعجب الأمور؛ سيقولون: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ وقد رأوا بأعينهم الحياة الآخرة، وسيقولون: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ وقد شاهدوا البعث والحساب !

وبهذا يتضح أن تمنيهم الرجوع إلى الحياة الدنيا إنما هو مجرد كلام يقولونه، لذا قال تعالى: ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ [المُؤْمِنُون: ١٠٠]، أي: مجرد كلام، لا صدق فيه، ولا طائل من ورائه.

المطلب الخامس: فوائد تربوية من أماني الرجوع إلى الحياة الدنيا.

في الآيات الكريمة هدايات وفوائد تربوية عديدة، يحتاج المسلم أن يتأملها ويستفيد منها في حياته وسلوكه وفكره، فالقرآن الكريم إنما أنزل للعمل، وما ذُكر فيه من أحوال أهل الضلال إنما ذُكر للعظة والاعتبار، ومن الفوائد التربوية التي نستفيدها من الآيات ما يلي:

الفائدة الأول: إدراك قيمة العمر.

عندما تتأمل أماني أولئك الذين يطلبون الرجوع إلى الحياة الدنيا، فلا يجابون؛ تعرف أيها الإنسان قيمة الحياة التي لا زلت تعيشها، وقيمة هذا العمر الذي لمّا ينتهِ بعد، لذلك كان نبينا صلى الله عليه وسلم يحمد الله تعالى على كل يوم تكتب له فيه حياة، فيقول إذا استيقظ من منامه: **(الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور)**[1]، وكان صلى الله عليه وسلم يوصي أصحابه رضي الله عنهم فيقول: **(إذا استيقظ أحدكم فليقل: الحمد لله الذي رد علي روحي، وعافاني في جسدي، وأذن لي بذكره)**[2]، فحمده صلى الله عليه وسلم ربه على ذلك فيه استشعار قيمة العمر، وإدراكه صلى الله عليه وسلم لأهمية هذه الحياة، إذ أنها مزرعة الآخرة، ومحل المسابقة إلى مرضاة الله، ودار العمل للفوز بالنعيم الأبدي، وعندما يتأمل المسلم أماني أهل الضلال، ومعرفتهم المتأخرة بقيمة أعمارهم التي فرطوا بها، يدفعه ذلك إلى إدراك نعمة هذا العمر، وأهمية اغتنامه قبل تصرمه.

الفائدة الثانية: خطورة الغفلة عن اليوم الآخر.

الموت وما بعده من بعث وحساب وجزاء أحداث ستمر على كل إنسان لا محالة، وهؤلاء الذين تمنوا الرجوع إلى الحياة الدنيا، إنما تمنوا ذلك لمّا أدركوا تلك الحقائق،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ٢٣٣٠/٥ (ح: ٥٩٦٥) كتاب: الدعوات، باب: ما يقول إذا أصبح.

(٢) أخرجه النسائي في السنن الكبرى ٣٢٠/٩ (ح: ١٠٧٠٢)، وابن السني في عمل اليوم والليلة ٩/١٢، وحسنه الألباني في صحيح الجامع ١٢١/١.

وهي حقائق مذهلة، وأحداث جسيمة كبيرة، كرر الله تعالى الحديث عنها في القرآن الكريم، وذكر نبينا صلى الله عليه وسلم أحداثها بالتفصيل، كل ذلك لنستعد ولنعمل صالحا، فواجب على الإنسان أن يستعد لذلك الموت الذي سيحل به، وللبعث والحساب والجزاء الذي سيلاقيه، وما أخبار أصحاب تلك الأماني الباطلة إلا عبرة وتذكرة، فها أنت أيها الإنسان لا زلت في حياتك الدنيا، فهل تنتظر أن تغادرها لتتمنى الرجوع؟ الموت لمّا يحل بك، وما بعده من أحداث وحقائق لم تأتِ بعد، فاستعد لما أمامك، واحذر من الغفلة؛ ففي أول آية من سورة الأنبياء قال الله عز وجل: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ﴾، وهذا خبر عجيب، ونبأ عظيم: الحساب يقترب، والغفلة تستمر! لذلك يحث الله عز وجل عباده أن يكونوا على يقظة، وأن يحذروا من الغفلة، تلك الغفلة التي استمرت في حياة أصحاب أماني الرجوع حتى خسروا خسارة لا تدارك لها.

الفائدة الثالثة: أهمية الأعمال الصالحة، والحث على المسارعة إليها.

في الآيات التي مرت بنا في تمني الرجوع إلى الحياة الدنيا، نجد أن أصحاب تلك الأماني لا يذكرون في أهدافهم من ذلك الرجوع شيئا من متع الدنيا، ولا شهواتها، وإنما يتمنون الرجوع ليعملوا صالحا، وليؤمنوا، وليحسنوا، وهذا يبيّن أنهم قد أدركوا مكانة الأعمال الصالحة، لكن بعد فوات الأوان، لذلك أتت الوصايا الكثيرة في القرآن والسنة تحث على الأعمال الصالحة، وترغب في المسارعة إليها، وتبين قيمتها، وتوضح الجزاء الحسن لأهلها.

الفائدة الرابعة: خطورة أئمة الضلال، ورفقاء السوء.

مر بنا من أهداف أصحاب أماني الرجوع؛ أن يتبرؤوا ممن تبرأ منهم، من أئمة الضلال ورؤساء الكفر، الذين كانوا في الدنيا يزينون لهم الباطل، ويدعونهم إلى الضلال، ثم صاروا في الآخرة يتبرؤون منهم، وينكرون صلتهم بهم، وكذلك رفقاؤهم في الدنيا وجلساؤهم، لم ينفعوهم في وقت هم بأشد الحاجة لنفعهم، فاتضح في وقت متأخر أن هؤلاء جميعا أعداء مجرمون، لذلك قالوا: ﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٩٩ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٖ ١٠١ فَلَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ فَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الشُّعَرَاء : ٩٩ - ١٠٢]، تمنوا أن يرجعوا فيرافقوا المؤمنين، ويكونوا مع المحسنين، بعد أن عرفوا خطورة أئمة الضلال، وأدركوا ضرر رفقاء السوء، لكن ذلك لم ينفعهم شيئا.

الخاتمة:

بعد أسابيع طيبة قضيتها مع هذه الآيات الكريمة، أختم ذلك بذكر **أهم النتائج** التي خرجت بها، وهي كالتالي:

١- أهمية البحث في مثل هذه المواضيع التي فيها الموعظة والذكرى لقلوب العباد.

٢- أن تمني الرجوع إلى الحياة الدنيا جاء في ثلاث عشرة آية من كتاب الله، منها ثمان صريحة، وخمس بالمعنى.

٣- وجدت أن تمني الرجوع إلى الحياة الدنيا وقع في أربعة مواطن من مواطن الآخرة.

٤- عند التأمل في هذه الآيات تلفت نظرك مشاهد الحسرة والندم اللذان يلفّان أصحاب تلك الأماني.

٥- بتأمل الآيات خرجت بخمس حقائق، كان انكشافها هو سبب تمني الرجوع.

٦- وحدِّدت ستة أهداف، زعم أصحاب تلك الأماني أنها مرادهم من الرجوع.

٧- ووجدت أن الردود والإجابات على تلك الأماني تنحصر في سبعة ردود.

٨- وظهر لي من الآيات خمس فوائد تربوية، أهمها: إدراك قيمة العمر، وخطورة الغفلة عن اليوم الآخر.

أما **التوصيات** فتتلخص في:

١- أهمية العناية بأمثال هذا الموضوع المتعلق بمشاهد الآخرة.

٢- أقترح على الباحثين دراسة بقية الأماني، التي تعدِّد صدورها في الدار الآخرة.

والحمد لله أولا وآخرا، وظاهرا وباطنا.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قائمة المراجع:

١- ابن الأثير، المبارك بن محمد، (١٣٩٩ه)، *النهاية في غريب الحديث والأثر*، بيروت، المكتبة العربية.

٢- الأزهري، محمد بن أحمد، (٢٠٠١م)، تهذيب اللغة، تحقيق: محمد عوض مرعب، ط١، بيروت، دار إحياء التراث العربي.

٣- الألباني، محمد ناصر الدين، صحيح الجامع الصغير وزياداته، المكتب الإسلامي.

٤- البخاري، محمد بن إسماعيل، (١٤١٤ه)، صحيح البخاري، تحقيق: مصطفى ديب البغا، ط٥، دمشق، دار ابن كثير.

٥- البغوي، الحسين بن مسعود، (١٤١٧ه)، معالم التنزيل في تفسير القرآن، تحقيق: عثمان ضميرية وسليمان الحرش، ط٤، دار طيبة.

٦- البلخى، مقاتل بن سليمان، (١٤٢٣ه)، تفسير مقاتل بن سليمان، تحقيق: عبد الله محمود شحاته، ط١، بيروت، دار إحياء التراث.

٧- التهانوي، محمد بن علي، (١٩٩٦م)، كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، تحقيق: رفيق العجم، ط١، بيروت، مكتبة لبنان.

٨- ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي، (١٤٢٢ه)، زاد المسير في علم التفسير، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، ط١، بيروت، دار الكتاب العربي.

٩- الرازي، محمد بن أبي بكر، (١٤٢٠ه)، مختار الصحاح، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، ط٥، بيروت، المكتبة العصرية.

١٠- الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد، (١٤١٢ه)، المفردات في غريب القرآن، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، ط١، دمشق، دار القلم.

١١- الزَّبيدي، محمّد مرتضى، (١٤٢٢ه)، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: جماعة من المختصين، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.

١٢- الزحيلي، وهبة، (١٤١١ه، ١٩٩١م)، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، ط١، دمشق، دار الفكر، بيروت، دار الفكر المعاصر.

١٣- الزمخشري، محمود بن عمر، (١٤٠٧ه)، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق: مصطفى حسين أحمد، ط٣، دار الريان للتراث.

١٤- السعدي، عبدالرحمن بن ناصر، (١٤٢٠ه)، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق: عبد الرحمن اللويحق، مؤسسة الرسالة.

١٥- أبو السعود، محمد العمادي، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، بيروت، دار إحياء التراث العربي.
١٦- السمعاني، منصور بن محمد، تفسير القرآن، (١٤١٨ه)، تحقيق: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس، ط١، الرياض، دار الوطن.
١٧- ابن السني، أحمد بن محمد، عمل اليوم والليلة، تحقيق: كوثر البرني، جدة، بيروت، دار القبلة للثقافة الإسلامية ومؤسسة علوم القرآن.
١٨- ابن سيده، علي بن إسماعيل، (١٤١٧ه)، المخصص، تحقيق: خليل إبراهم جفال، ط١، بيروت، دار إحياء التراث العربي.
١٩- الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار، (١٤٤١ه)، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، ط٥، الرياض، دار عطاءات العلم، الرياض.
٢٠- الطبري، محمد بن جرير، (١٤٢٢ه)، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق: عبدالله التركي، ط١، دار هجر.
٢١- طنطاوي، محمد سيد، (١٩٩٨م)، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، ط١، القاهرة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.
٢٢- ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد، (١٩٨٤ه)، التحرير والتنوير، الدار التونسية.
٢٣- العثيمين، محمد بن صالح، (١٤٣٦ه)، تفسير سورة السجدة، ط١، السعودية، مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية.
٢٤- العثيمين، محمد بن صالح، (١٤٣٦ه)، تفسير سورة فاطر، ط١، السعودية، مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية.
٢٥- العثيمين، محمد بن صالح، (١٤٣٧ه)، تفسير سورة الشورى، ط١، السعودية، مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية.
٢٦- العسكري، أبو هلال، الفروق اللغوية، تحقيق: محمد إبراهيم سليم، القاهرة، دار العلم والثقافة.
٢٧- ابن عطية، عبد الحق بن غالب، (١٤٢٢ه)، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية.
٢٨- ابن فارس، أحمد، (١٣٩٩ه، ١٩٧٩م)، مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر.

٢٩- الفراء، يحيى بن زياد، معاني القرآن، تحقيق: أحمد النجاتي وآخران، ط١، مصر، دار المصرية للتأليف والترجمة.
٣٠- الفيروزآبادى، مجد الدين أبو طاهر، (١٤٢٦ه،٢٠٠٥م)، القاموس المحيط، تحقيق: مكتب تحقيق التراث، ط٨، بيروت، مؤسسة الرسالة.
٣١- القرطبي، محمد بن أحمد، ط٢، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، القاهرة، دار الكتب المصرية.
٣٢- القيرواني، يحيى بن سلام، (١٤٢٥ه، ٢٠٠٤م)، تفسير يحيى بن سلام، تحقيق: الدكتورة هند شلبي، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية.
٣٣- ابن القيم، محمد بن أبي بكر، (١٤٤٠ه، ٢٠١٩م)، عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، تحقيق: إسماعيل بن غازي مرحبا، ط٤، الرياض، دار عطاءات العلم.
٣٤- ابن كثير، إسماعيل بن عمر، (١٤٢٠ه)، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي سلامة، ط٢، دار طيبة.
٣٥- المناوي، عبدالرؤوف، (١٤١٠ه،١٩٩٠م)، التوقيف على مهمات التعاريف، القاهرة، عالم الكتب.
٣٦- النسائي، أحمد بن شعيب، (١٤٢١ه، ٢٠٠١م)، السنن الكبرى، تحقيق: حسن عبد المنعم شلبي، ط١، بيروت، مؤسسة الرسالة.
٣٧- الهاشمي، أحمد بن إبراهيم، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، تحقيق: يوسف الصميلي، بيروت، المكتبة العصرية.
٣٨- الواحدي، علي بن أحمد، (١٤١٥ه)، الوسيط في تفسير القرآن المجيد، تحقيق: عادل أحمد وآخرون، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية.